

الخطاب الفلسفي الحديث في الجزائر

أ. كرام ياسين

جامعة محمد ملين دباغين، سطيف2

kerramyacine@gmail.com

الملخص:

لقد تشكل الخطاب الفلسفي الحديث في الجزائر في لحظة متزامنة مع الخطابات التي أفرزتها الميادين الفكرية الأخرى؛ سواء في الأدب أو فيالدين أوحى في الفن. وهذه الخطابات كلها عرفت نفس المناخ السياسي والثقافي والاجتماعي الذي طبع الجزائر في تلك الآونة. وقد عرفت الكتابة الفلسفية الحديثة في الجزائر عدة أسماء ثقيلة أمثال: الشيخ أبو عمران الذي قدم أطروحة دكتواه قيمة حول المعتزلة، وعبد الله شريط حول الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، وعبد المجيد مزيان بنظرياته الاقتصادية و كرييع النبھاني حول الفلسفة الجمالية. فقد خلف هؤلاء المفكرون وأمثالهم تراثا فلسفيا ثريا يحتاج إلى إبرازه والاستثمار فيه. وبل يبدو أن أمر الاهتمام بفكرهم واجب يقع على عاتق الأجيال اللاحقة.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة؛ الخطاب؛ الحداثة؛ الجزائر.

مقدمة:

لقد تشكل الخطاب الفلسفي الحديث في الجزائر في لحظة متزامنة مع الخطابات التي أفرزتها الميادين الفكرية الأخرى؛ سواء في الأدب أو فيالدين أوحى في الفن. وهذه الخطابات كلها عرفت نفس المناخ السياسي والثقافي والاجتماعي الذي طبع الجزائر في تلك الآونة. وقد عرفت الكتابة الفلسفية الحديثة في الجزائر عدة أسماء ثقيلة أمثال: الشيخ أبو عمران الذي قدم أطروحة دكتوراه قيمة حول المعتزلة، وعبد الله شريط حول الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، وعبد المجيد مزيان بنظرياته الاقتصادية و كريع النبهاني حول الفلسفة الجمالية.⁽¹⁾ فقد خلف هؤلاء المفكرون وأمثالهم تراثا فلسفيا ثريا يحتاج إلى إبرازه والاستثمار فيه. وبل يبدو أن أمر الاهتمام بفكرهم واجب يقع على عاتق الأجيال اللاحقة.

وسعيا وراء هذا الواجب اخترنا في هذا المقال الحديث عن فكر كريع النبهاني^(*) وبالتحديد حول فلسفته الجمالية. والذي اخترنا أن يكون عنوانه

¹Benméziane Bencherki «La recherche en philosophie :Un rapide tour d'horizon » Les Lettres françaises, n° 74,2010,p. 6.

*كريع النبهاني Coribaa Nabhani:مفكر جزائري. ولد عام 1918م بأولاد جلال بيسكرة. تلقى تعليمه الابتدائي والمتوسط في مسقط رأسه. ثم انتقل إلى الجزائر العاصمة ليواصل تعليمه الثانوي. لينتقل فيما بعد إلى فرنسا لإكمال مشواره الدراسي في الجامعة. ثم عاد إلى الجزائر بعدما تحصل على شهادة الليسانس في الفلسفة. لكنه لم يلبث طويلا حتى شد الرحال مرة أخرى إلى فرنسا للعمل ومواصلة الدراسة على الرغم من أن والده أبدى رفضه في ذلك. وفي فرنسا تحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السربون. 1967م والتي كانت تحت إشراف أستاذه وصديقه غاستون باشلار. ليعود بعدها إلى الجزائر. ليدرّس بقسم الفلسفة بجامعة بوزريعة بالجزائر العاصمة. توفي كريع النبهاني عام

ب: تجلي الإنساني في الفن عند كريغ النبهاني . ونحن نعد لهذا المقال تبين لنا إلى أي مدى يعد كريغ النبهاني مفكرا أصيلا ومتميزا. وأعتقد أنه لن يكون مجاملة منا إن قلنا عنه أنه فيلسوف يستحق الاهتمام والتقدير. وحتى وأن فكره لم يستثمر بعد إلا أن الذين درسوا عنده وحتى زملائه في التدريس كانوا ولازالوا يشهدون على فكره العميق وروحه النزاعة إلى كل ما هو إنساني. وقد يرجع السبب، طبعاً وهو سبب من الأسباب، في عدم الاهتمام بفكر كريغ النبهاني، على الأقل في الجزائر، إلى تعريب التعليم المدرسي والجامعي. فلما كانت كل كتبه باللغة الفرنسية فإن الجمهور العريض من طلبة الفلسفة لا يستطيع التعامل المباشر مع أفكاره. لهذا فإن ترجمة كتبه تبقى ضرورة ملحة تُلقي على عاتق أهل الاختصاص. ومن الأسباب أيضاً يمكن أن نشير إلى أن الإعلام، سواء المكتوب أو المسموع أو المرئي لا يذكر هذه الشخصية الفلسفية إلا نادراً هذا إن لم نقل لا يذكرها أصلاً. ويبدو لي أن السبب الرئيسي، والذي يضاف إلى السببين السابقين، في أن كريغ النبهاني لم يحظى بالاهتمام يرجع إلى ندرة مؤلفاته في الأسواق فكل النسخ التي طبعت، وعددها قليل على ما يبدو وهذا يظهر جلياً عندما نسعى للحصول

2004م خلفاً وراءه انتاجاً فكرياً معتبراً. حيث شارك بعدة مقالات في مجلات ودوريات جزائرية وفرنسية. كما ألف العديد من الكتب القيمة ونذكر منها: قصائد طفل 1935. أحزان العربي 1904. الأفارقة يتساءلون 1955. الخير والشر من منظور القرآن 1966. فلاسفة الإسلام 1980. الإنساني العالمي: الفلسفة الجمالية 1989. وهذا الكتاب كان في الأصل أطروحته في الدكتوراه. فلاسفة إنسانيون 1995 ... مقال في البعد الجمالي للإنساني. وكانت كتبه كلها باللغة الفرنسية.

عليها، قد استنفذت ما يجعل أمر إعادة طبعها من أولى الأولويات. وأنا أذكر هذه الأسباب حتى أبين أن الخلل ليس في أفكار كريع النبهاني وفي أنها ليست جيدة بما يكفي حتى تجلب القراء إليها. وإنما لأبين أن المعطيات الموضوعية لبروزه كمفكر أصيل ومتميز هي غائبة وغير متوفرة.

إن القارئ لكتاب كريع النبهاني المعنون ب: " **الإنساني العالمي: فلسفة الجمال**"، وهو الكتاب الذي اعتمدت عليه في اعداد هذا المقال، يكتشف أن هناك شيئاً ما يجعله يتميز عن باقي المفكرين الآخرين الذين ينتمون إلى الثقافة العربية الإسلامية وهو أن فلسفته الجمالية اتخذت طابعا عالميا على خلاف المفكرين الآخرين الذين نجد انتماءاتهم الدينية أو الثقافية أو اللغوية بارزة جدا. فكريع النبهاني لم يكن فكره محليا أو إقليميا أو ذو طابع ديني وإنما كان عالميا بامتياز. ونحن نقرأ له الكتاب الذي ذكرنا نتبين أن كاتبه لا يدافع عن انتماءاته ولا عن دينه ولا عن نقد أو إصلاح عقل الثقافة التي ينتمي إليها وإنما كان إنسانيا، كان عالميا، كان يهيمه النوع البشري، تهمة الإنسانية جمعاء وليس ثقافته المحلية أو الإقليمية أو انتمائه الديني أو اللغوي. بكلمة واحدة: كان وطنه الذي ينتمي إليه هو الإنسانية.

في هذا الكتاب قدم كريع النبهاني تصوّره حول فلسفته الجمالية. حيث يعتقد أن موضوع الفن ليس الجمال وإنما موضوعه هو **الإنساني**، أو بالأحرى **حياة الإنساني. والإنساني**، حسبه، يمثل مركز الإنسانية، هو الكائن النموذج الذي يشترك فيه كل الأفراد، هو منتشر في كل الثقافات وفي كل الشعوب

وكل الحضارات ومباطن لكل فرد. وما قام به كريع النبهاني هو تعقب تظاهراته عبر التاريخ.

يعلمنا النبهاني أن **الإنساني** يشعش داخل كل إنسان، هو محايث ومباطن لكل فرد من أفراد الإنسانية. لا يتجلى إلى العيان إلا عندما نتجرد من الصدقات التي ورثناها من مجتمعاتنا والتي عملت على تشكيلها الثقافات والمعتقدات أو الموروثات أو حتى الحكومات التي ننتمي إليها. لأن الإنساني لا تصنعه هذه الكيانات المختلفة وإنما هو نابع من الطبيعة البشرية، التي يشترك فيها كل الأفراد، ويتصرف وفقا لها. ويعتقد النبهاني أن الفن هو الوسيلة الوحيدة التي بإمكانها التعبير والكشف عن **الإنساني** بكل كثافة. لأن الفن بصفته مطلقا وموضوعيا يعد النمط التعبيري الوحيد الذي يملك من الإمكانيات ما يتيح له استيعابه.

وهذا يقود إلى القول أن الفنان الحقيقي في منظور كريع النبهاني هو الذي يعبر في مؤلفه الفني عن **الإنساني**. وقد أرجع سبب سقوط بعض الأدباء أو الفنانين عموما في النسيان، وتجاوز الزمنهم، إلى أنهم لم يعبروا عن **الإنساني** في فنهم. وكان قيمة الفن الحقيقي لا تبرز إلا حينما يهتم **بالإنساني** ويجعل منه موضوعا. وإذا كان العديد من الفنانين يدّعون أنهم يعبرون عن **الإنساني** في أعمالهم الفنية وهم في الحقيقة غير ذلك، فإن الأولى، أولا، نجيب عن السؤال التالي: ما هو **الإنساني** عند كريع النبهاني؟ حتى يتسنى لنا التمييز بين الفنان الحقيقي والفنان المزيف. وكيف يمكن الولوج إلى هذا الإنسان وفهمه؟ ولماذا

يعول النبهاني على الفن من دون الميادين التعبيرية الأخرى في الكشف عن الإنساني؟.

ما مفهوم الإنساني l'Humain؟

دور الفن عند كريغ هو الكشف عن الإنساني والتعبير عنه. ولما كان دور الفن هو ما ذكرناه فإن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا والذي ينبغي طرحه هو: ما معنى الإنساني في فكر كريغ النبهاني؟ إنه، في معناه العام، كل تظهر عميق وحقيقي وواقعي للروح البشرية⁽²⁾. وفي اعتقادنا أن هذا التعريف هو بحاجة إلى كلام آخر يوضحه ويشرحه أكثر حتى يتسنى لنا الفهم الجيد لفحواه. وهو ما سنقوم به في هذه السطور الموالية.

يرى النبهاني أن كل فرد من أفراد الإنسانية يحمل ذاتا تتكون من طبيعتين أو ماهيتين الأولى: ثابتة، واحدة وغير متغيرة وهي تمثل جوهر كل إنسان وأخرى متغيرة، متعددة ومختلفة من شخص لآخر. ما يعني أن كل فرد يحمل في ذاته شخ يتين الأولى: تعبر عن الروح الإنسانية التي تسري داخل كل الأفراد وهي عالمية وكونية وواحدة ومشتركة بين كل البشر، أما الشخصية الثانية: فهي متعددة ومتغيرة من فرد لآخر ما يعني أنها شخصية سطحية فوقية تعمل على تشكيلها البيئة والثقافة التي ينتمي إليها الأفراد⁽³⁾. إذن الإنسان له بعدين الأول يتميز بالمطلقية والعالمية والانفتاح والثاني يتميز بالمحدودية والانغلاق.

²Nabhani Korriba, *humain universel: philosophie esthétique*, entreprise nationale du livre, Alger, 1989, p36.

³Ibid em.

الأول هو هذا البعد الإنساني الذي يعبر عن الروح الإنسانية التي يتمتع بها كل فرد أما الثاني فهو ذلك الذي عملت البيئة الثقافية والفكرية والعقدية والمناخية على تكوينه وبلورته. الأول يمثل الماهية التي يشترك فيها كل البشر وتجعلهم موحدين كونه القاسم المشترك بينهم أما الثاني فهو الذي يعمل على صنع الفوارق وخلق خصائص ومميزات تجعلهم مختلفين عن بعضهم البعض من حيث اللغة والثقافة والعادات والتقاليد والمعتقدات.

الإنسان دائما ينتمي إلى أمة إلى جماعة ما يستمد منها ثقافته ولغته ويتعلم عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها. ولا يوجد أبدا إنسان مجرد أي إنسان منعزل دون انتماء ما يعني أن كل فرد يحمل ثقافة ما تعبر عن انتمائه وهويته وتجعله يتميز عن الأفراد الآخرين الذين ينتمون بدورهم إلى ثقافات وهويات مختلفة.

والإنسانية، كما نعلم، مختلفة باختلاف شعوبها وثقافتها ولغاتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وكل هذه الشعوب والثقافات تساهم في الكشف عن الإنساني وفقا لمعاييرها وخصائصها ومميزاتها. وحتى وإن اختلف الأفراد في التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم وأفكارهم ومعتقداتهم فإن ما يعبرون عنه لا يمكن أن يكون إلا ما هو إنساني لأن جميع الأفراد والشعوب والثقافات ينتمون إلى ماهية واحدة أو كيان واحد هي الإنسانية. ومنه فإن كل الأفراد والشعوب والثقافات تساهم مجتمعة في الكشف عن الإنساني العالمي أو الإنساني الأصيل. وهذا الانساني العالمي أو الانساني الأصيل هو

هذا الإنساني الذي تشترك فيه كل الثقافات وكل الشعوب ويشترك فيه كل الأفراد.

وهذا الانساني الأصيل يميزه كريع النبهاني عن الانساني الزائف^(*) الذي يتجلى في مظهرين: **الإنساني الفاسد**: وهو الإنساني الذي أطلق العنان لأحاسيسه وشهواته الأنانية الضيقة المتصقة برغبات الجسد وغرائزه، إنه الإنساني الذي لا يتعدى حدود مصلحته الشخصية. أما المظهر الثاني من مظاهر الإنساني الزائف فهو **الإنساني المجتمعي أو القومي**: ويقصد به **الإنساني المغلق على مجتمعة**، على ثقافته، على بيئته ومحيطه ويرفض الانفتاح على الأفراد والشعوب والثقافات والمعتقدات الأخرى. أما **الإنساني الأصيل**، وهو **الإنساني** الذي يدعو إليه كريع النبهاني، فهو ذلك الذي تخلص من بعض الأخطاء والمكتسبات والهفوات الملازمة له حتى يتجلى على حقيقته أي على صورته الحقيقية غير المنحرفة. أي هو ذلك **الإنساني** الذي لم تنحرف طبيعته الإنسانية بعوامل أخرى دخيلة، سواء كانت عوامل مادية أو فكرية، تدفع الإنسان إلى طاعة أوامر غير نابعة من طبيعته الإنسانية النقية أي أوامر خارجة عن ذاته. وهذا الإنساني يقول، عنه كريع النبهاني، أنه مباطن ومحايث لكل واحد فينا وواجب كل فرد أحيائه في ذاته.⁽⁴⁾ أحيائه لأن هذا **الإنساني الأصيل** هو دائما مهدد من طرف الإنساني الزائف.

* هذه الثنائية عند كريع النبهاني بين الانساني الأصيل و الانساني الزائف تذكرنا بالثنائية الهيدغرية والمتمثلة في الدازين الأصيل والدازيناللاأصيل أو الزائف.

⁴Ibid. P. 17.

ولكن كيف يمكن لنا أن نميز بين **الإنساني الأصيل** و**الإنساني الزائف**؟ يوجد العديد من الفنانين يدّعون أنهم يعبرون عن **الإنساني(الأصيل)** ومن المؤكد أنه ليس جميعهم كذلك. وحتى نميز بين الذين يعبرون حقيقة في تفهمهم عن **الإنساني** من الذين يدّعون فقط ذلك علينا، أولاً، أن نعرف مميزات هذا **الإنساني**؟

تعد **العفوية والصراحة والصدق** من ميزات **الإنساني الأصيل**. ولكن أي صدق وأية عفوية وأية صراحة يقصدها كريع النبّهاني؟ فإذا تأملنا سلوكات المجنون نعتبرها صادقة وصريحة وعفوية، والإنسان الذي يطلق العنان لغرائزه ويأتيها طوعاً فهو كذلك صادق وصريح وعفوي وهكذا. إن **الإنساني** الصادق والصريح والعفوي، عند النبّهاني، هو الذي يعبر عن ذاته للآخرين، أي يعبر عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه وأفكاره ومعتقداته، مع الأخذ في الاعتبار:

1. الحقيقة التي يعبر عنها.
2. ضبط غريزته الحيوانية.
3. مراعات طبيعته البشرية.⁽⁵⁾

أي أن **الإنساني** يكون صادقاً وصريحاً عندما يكون إنساني في ذاته. ويكون إنساني في ذاته عندما يعبر عن الأشياء كما هي وكما يشعر بها وليس كما تملّوها عليه بيئته الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية. وأن يعبر عن الأشياء كما

⁵Ibid, P108.

تخليها عليه طبيعته الإنسانية التي لم تنحرف بفعل العوامل الخارجة عنها مادية كانت أو معنوية. وهذا يعني أن لا ينساق وراء غرائزه الحيوانية حتى يصبح حيوانا وأن لا يقمعها حتى لا يكون متكلفا في سلوكاته ومشاعره، ما يعني أن يتصرف بعفوية.

كيف نكشف عن الانساني؟

إن السؤال عن الكيفية التي من خلالها نستطيع الكشف عن **الإنساني** هو في الحقيقة سؤال عن الطريقة أو المنهج الذي ينبغي اتباعه في سعينا للكشف عنه. يقول كريغ النبهاني: « إن منهجنا في دراسة الانساني... يعتمد على التعاطف *lasympathie* حتى نكون في تواصل مع روح المؤلف ونرتقي في احضان **الإنساني** »⁶. لكن كيف يكون **التعاطف** منهجا لدراسة **الإنساني** والكشف عنه؟ لقد قلنا من قبل أن جميع الشعوب وجميع الثقافات تساهم في التعبير والكشف **الإنساني**، ولما كانت هذه الشعوب والثقافات مختلفة ومتنوعة فإن طريقة التعبير عن **الإنساني** حتما ستكون مختلفة. هذا لأن لكل شعب خصائص ومميزات ينفرد بها وأن لكل ثقافة مكونات خاصة بها. فمثلا الثقافة الأوروبية لها خصائص تميزها عن الثقافة العربية الإسلامية وهذه الأخيرة بدورها تختلف عن الثقافة الهندية أو الفارسية أو الإفريقية أو الصينية وهكذا. ومنه فإن طريقة التعبير عن **الإنساني** في هذه الثقافات ستكون

⁶Ibid. P. 23.

مختلفة باختلافات مكوناتها من عادات وتقاليد ولغات وأفكار ومعتقدات... إلخ. وهذا الاختلاف لا ينبغي النظر إليه على أنه شيء سلبي أو أنه عيب من العيوب وإنما ينبغي أن ننظر إليه نظرة إيجابية؛ أي أن نعتبره على أنه ثراء، وليس على أنه اختلاف يقود إلى التناقض وإنما إلى التنوع والتعدد، هو اختلاف يقود إلى التكامل وليس إلى الشقاق والفرقة.

وكل الأفراد والشعوب والأمم تحاول التعبير والكشف عن الإنساني من زاويتها الخاصة بها أي انطلاقاً من ثقافتها الخاصة بها. وكلها مجتمعة تساهم في

اعطاء صورة كاملة عن هذا **الإنساني العالمي أو الكوني** l'Humain universel

ولما كانت تظاهرات وتحليلات **الإنساني** متعددة ومختلفة فإننا لا نستطيع أن نفهم هذا **الإنساني** الذي عبرت عنه الثقافات الأخرى الغربية عنا لأنه أحياناً لا نتقبل هذا الوصف وهذا التعبير الذي تقدمه لنا الثقافات الأخرى لأنه ببساطة مبادئها لا تتوافق مع مبادئنا وثقافتهم متناقضة مع ثقافتنا وحتماً فإننا سنبتدي نوعاً من رفض الآخر المختلف عنا ثقافياً ولغوياً وعقدياً... إلخ. لهذا السبب يدعوننا كريع النبهاني إلى الاعتماد على **التعاطف كمنهج للكشف عن الإنساني** لأنه الوسيلة الوحيدة التي تتيح لنا فهم **الإنساني العالمي**.

عندما يقول كريع النبهاني أن التعاطف هو أداة فهم ومعرفة **الإنساني** فإنه يبدو أنه لا يعول على المناهج التي تستخدمها العلوم الطبيعية والعلوم الدقيقة. هذا لأن موضوع دراسة هذه العلوم لا تحتاج أن تتعاطف معها وإنما التعاطف نجده في العلوم الإنسانية والاجتماعية.

لكن ما معنى أن نتعاطف؟ التعاطف بمفهوم كريبع هي محاولة فهم الآخر انطلاقاً من ثقافته هو وليس انطلاقاً من ثقافتنا نحن، بمعنى أن نتجرد من بعض الأحكام المسبقة التي تقدمها لنا ثقافتنا في عملية فهم الآخر فإذا أردنا أن نفهم جيداً هذا **الإنساني** الذي تعبر عنه الثقافات الأخرى علينا أن نلج إلى داخل هذه الثقافة التي عبرت عنه وأن نفهمه انطلاقاً من معايير هذه الثقافة ذاتها وليس من معاييرنا نحن. والتعاطف هو نوع من الموضوعية التي تجعلنا نتخلص من بعض الجوانب الذاتية (الأحكام المسبقة)⁽⁷⁾ ويبدو أن هذه الطريقة التي اتبعها كريبع في فهم **الإنساني** هي نفسها الطريقة التي انتهجها من قبل الفيلسوف الألماني **هردر** (*) في فهم الحضارات والثقافات والحقب التاريخية الأخرى حينما ذهب إلى القول أنه حتى نستطيع أن نفهم الثقافات والأمم الأخرى بكل ما تملكه من خصوصيات وتنوعات علينا أن نتعاطف معها حيث يقول هردر: « الطبيعة الكلية للروح التي تهيمن على كل شيء وتكيف حسب ماهيتها كل الميولات والملكات الروحية الأخرى؛ وبل تتعداها إلى السلوكات الأكثر جموداً. وحتى يكون بمقدورك الشعور بها لا تبني اجابتك من خلال رأي واحد بل حاول أن تتوغل في هذا العصر، في هذه الرقعة الجغرافية، وهذا التاريخ بأكمله. توغل داخل كل هذه

⁷Ibid. P. 24.

*يوهان غونفريغ هردر: فيلسوف وأديب ولاهوتي ألماني (1744م-1803م) يعد من المبشرين الأوائل بالرومانسية في ألمانيا. دخل في سجال فكري مع فلاسفة التنوير. من أهم مؤلفاته: فلسفة أخرى للتاريخ، أفكار من أجل فلسفة تاريخ الإنسانية، مقال حول أصل اللغة...

الأشياء وحاول أن تحس بها بنفسك. وتلك هي الطريقة الوحيدة التي بإمكانها أن تقودك إلى فهم هذه الكلمة(الروح) «⁽⁸⁾.

إذن الطريقة الأفضل، حسب هردر، لفهم الروح التي تسري في الأمم والثقافات والحبب الأخرى هي أن نتعاطف معها والتعاطف يعني أن نعوض في تركيبة هذه الأمم والثقافات، أن نعيش وسطها، أن نتجرد من أحكامنا القبلية. وهذا يعني أن لا نحكم عليها من الخارج بأن نطلق عليها أحكاما ذاتية أو معممة.

ويبدو أن امكانية فهم جماعة ما أو ثقافة ما في أي حقبة كانت يجب علينا أن نجهد مخيلتنا من أجل الولوج إلى مشاعر هؤلاء البشر البعيدين عنا في الزمان والمكان والمختلفين عنا ثقافيا وفكريا، وإذا استطعنا عن طريق مجهود المخيلة أن ننشأ من جديد، داخل ذواتنا، هذا النمط من الحياة الذي عاشه هؤلاء البشر وكيف كانت طبيعتهم وقيمهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم... إلخ استطعنا بذلك أن نفهمهم. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي ينبغي اتباعها إذا اردنا أن نكون موضوعيين في أحكامنا.⁽⁹⁾

كذلك الأمر ينطبق على **الإنساني** الذي يتكلم عنه كريبع النبهاني، فنحن ليس بمقدورنا أن نفهم، دون إساءة، هذا **الإنساني** الذي تعبر عنه المؤلفات

⁸Herder, J. G., *une autre philosophie de l'histoire*, Trad. De l'allemand par : Max Rouché, Paris, Aubier, P. 169.

⁹ ايزايا برلين، جذور الرومانتيكية، ترجمة: سعود السويدا، جداول، لبنان، ط 1، 2012، ص

الفنية من روايات وأشعار وقصص وحكايات ولوحات فنية وموسيقى ونحت... إلخ إن لم نتعاطف مع الفنان وشخصياته التي اختارها لتعب أدوار مؤلفه الفني. لأن الفنان ينتمي إلى مجتمع ما، ما يعني أنه ينتمي إلى ثقافة ما إلى مناخ فكري ما لهذا فإننا إن لم نتعاطف مع هذا الفنان فإننا سنسيئ حتما فهم مايريد الكشف عنه في فنه ونسيء أيضا فهم هذا **الإنساني** الذي يريد التعبير عنه.

وفي الحقيقة فإن هذا الإنسان المتعاطف هو نفسه هذا **الإنساني** الأصيل الذي يتكلم عنه كريبع النبهاني لأن الذي يتعاطف يعني أنه يستطيع أن يتخلص من هذه الصدفة التي ورثها من مجتمعه، بمقدوره أيضا أن يفهم الآخر انطلاقا من ثقافة هذا الآخر نفسه وليس من ثقافته هو. بمعنى أنه يتعامل مع الآخر من خلال هذه الطبيعة البشرية التي يشترك فيها كل الأفراد. إذن **الإنساني** الذي يقصده كريبع النبهاني هو **الإنساني** العالمي المنفتح، **الإنساني** الذي لم تنحرف طبيعته الإنسانية بعوامل أخرى دخيلة عليه لم تنبع من ذاته. هذا **الإنساني** الأصيل هو في مقابل **الإنساني** المزيف المغلق الذي تشوهت طبيعته الإنسانية بشوائب أخرى غريبة عنه.

وهذا **الإنساني** العالمي تساهم كل الشعوب وكل الثقافات في التعبير عنه. وحتى نلج ونفهم هذا **الإنساني**، الذي تشارك كل الإنسانية في التعبير عنه، علينا أن نتعاطف معه. وفي حقيقة الأمر فإن هذا **الإنساني** الأصيل هو نفسه هذا الإنسان المتعاطف المنفتح على الثقافات الأخرى. ويعتبر كريبع النبهاني

الفن على أنه الوعاء الوحيد الذي بمقدوره أن يستوعب هذا الإنساني والكشف عنه. والسؤال الذي يسمح لنا بالانتقال إلى العنصر الموالي هو: لماذا يعول كريع النبهاني عن الفن ويعتبره الوسيلة الوحيدة للكشف عن هذا الإنساني العالمي؟.

الفن مرآة الإنساني:

يميز كريع النبهاني بين أربعة أنماط تعبيرية يتجلى من خلالها الإنسان وهي: الدين، العلم، الفلسفة والفن. ولكل نمط من هذه الأنماط التعبيرية دوره المنوط به. فالدين، مثلاً، دوره بث الاطمئنان والراحة في نفوس البشر، أما الفن فدوره هو الكشف عن العفوية الكامنة في الروح البشرية، أما العلم فهو يهتم بالمادة، أما الفلسفة، فهي تعتبر العلم محدود لأنه يهتم بالمظاهر فقط وليس بالحقائق، يهتم بالمعلولات وليس بالعلل، أما الفن عندها مجرد معرفة وهمية، أما الدين فتعتبره مصدر الخرافة، أما هي فتدعي أنها تعمل العقل وتسعى إلى توضيح الأشياء على حقيقتها. ويرى كريع النبهاني أن الفن يهتم "بالأنا"، الدين "بالله"، العلم "بالكون"، والفلسفة "بالعقل". فإذا كانت آراء البشر مختلفة فيما يتعلق بالله والكون والعقل فإن الواقع يبين لنا أنهم متفقون كلهم في ما يتعلق بالأنا من حيث مشاهره وأهوائه وآماله وقلقه ولا أحد ينكرها، فكل البشر يحبون وكلهم يشعرون بالقلق تجاه الموت وكلهم يرغبون فيما هو جميل... إلخ.⁽¹⁰⁾ فإذا كانت

¹⁰ Ibid. p. 41.

مكنونات الأنا(الأنا العميق) هي القاسم المشترك بين البشر، والفن هو المجال التعبيري الذي يكشف عنه فإنه، بالنتيجة، يمكن اعتبار الفن هو الوعاء الوحيد الذي بإمكانه أن يحتضن جميع البشر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن الفن له القدرة على احداث التوازن بين الشكل التعبيري والمضمون، بين الروح والتعبير فلما كانت ميزة الروح أنها مطلقة فإن الفن كذلك مطلق وله من الإمكانيات ما يتيح له تصوير هذا الإنسان المتشعب والدائم التشكل، والذي يشبهه كريع النبهاني بالنهر الدائم التدفق. وإذا كان العلم يعبر عن نوع من الموضوعية التي تتجلى فيما يصوغه من حقائق عامة فإن الفن أيضا بدوره يكشف عن نوع من الموضوعية (الفنية) عندما يعبر وببساطة عما يحس ويشعر به كل إنسان⁽¹¹⁾. ولهذا فالفن، حسب النبهاني، يكون موضوعي حين يعبر عن مكنونات "الأنا العميق". فالفن يكتسب قيمة جمالية وفنية عندما تتماشى المشاعر والأحاسيس المعبر عنها مع انفعالات الآخرين وخلجاتهم ومعاناتهم وآمالهم. فالفنان في أثناء تعبيره وتصويره لعالمه الداخلي يعبر كذلك عن جزء من الوعي الاجتماعي وعالم البشر الروحي. ويلقى المؤلف الفني تجاوبا من طرف الجمهور العريض فقط إذا كان يعبر عن المشاعر الطبيعية المتنوعة عند الأفراد.⁽¹²⁾

¹¹ Ibidem.

¹² ليكال بولداسيف، قضايا البحث الفلسفية في الفن، ترجمة: زياد الملا، دار المسيرة، لبنان، 1984، ص. 108.

إن "الأنا العميق" هو نفسه هذا "الأنا العالمي" الذي يضم كل الأفراد. فالمشاعر النابعة منه (أي من الأنا العميق) يتماهى معها كل البشر ويشعر بها كل إنسان. ⁽¹³⁾ وقد عبر عن هذا العالم الداخلي ثلة من الفنانين والأدباء والشعراء العظام أمثال: مولير وغوته وشيكسبير ودوستيفسكي وغيرهم. ودور الفنان الحقيقي هو التعبير عن هذا "الأنا العميق" وليس عن الأنا السطحي. لأن حقائق "الأنا العميق" هي حقائق واقعية ومحايثة ومباطنة لكل فرد. وهذا الواقع الحقيقي المحايث لكل فرد يصبح شيئاً عالمياً عندما يعمل الفنان على اخراجه والكشف عنه من خلال فنه. لهذا يعتبر غوته أن عظمة الفنان لا تبرز حين يكشف عن الأنا السطحي أي عن الأحاسيس الذاتية الضيقة والظرفية وإنما العظيم ذلك الذي يعبر عن الأحاسيس العالمية التي يشترك فيها جميع البشر. وهذا يعني أن الفنان الحقيقي هو ذلك الذي يكشف عن حقيقة ذاته الفردية لبني جنسه لأن الفردي ليس في مقابل العالمي وإنما داخل كل فرد يوجد بعد عالمي. ويذهب كريبع النبھاني إلى أن الأديب، أو الفنان بصفة عامة، إذا أراد أن يكون أدبه أو فنه عالمياً عليه أن يعبر عن "الأنا العميق" أي عن الإنساني. ويرى أن التجربة تكشف لنا أن المؤلفين الذي سقطوا في النسيان هم أولئك لم يعبروا عن الإنساني وقبعوا في الحدود التي وضعتها عاداتهم وتقاليدهم وأذواقهم ومعتقداتهم. ⁽¹⁴⁾ لهذا يدعونا كريبع النبھاني إلى التمرد على هذه

¹³Ibid. p. 101.

¹⁴Ibid. P113.

القيود التي فرضها الذهنيات وعلى هذه الحدود الجغرافية التي أنشأتها السياسات لأن هذه القيود والحدود ليست أصلية بل هي مصطنعة من طرف الإنسان نفسه. وهنا لا ينبغي أن نتهم كريع البهائي عندما يدعونا إلى التمرد على ما هو متوارث بأنه رجعي أو يدعو إلى الفوضى أو إلى هدم كل القيم وإنما التمرد عنده يكون على الأشياء التي تطمس هوية **الإنساني**، على هذه الحدود النابعة من خارج الطبيعة الإنسانية سواء كانت مادية أو فكرية أو روحية. والإنسان يكون **إنساني** إذا خضع فقط للحدود التي تملئها عليه طبيعته البشرية أما ما عدى سواها فهي حدود مصطنعة ينبغي التمرد عليها. ويبدو لنا أن الدور المنوط بالأديب أو الفنان بصفة عامة ليس سهلاً بالمرّة لأنه مطالب بإخراج مجتمعه من تلك القوقعة التي يعيش فيها، ومن تلك النمطية المتوارثة في الحياة والتفكير والاعتقاد. صحيح أن الفنان يسعى إلى أن يثير إعجاب الجمهور وأن ينال رضاه إلا أن هذا لا يعني أن يكون فنه متطابقاً مع ذوق الجمهور، وأن عليه احترام التقاليد المتوارثة والأفكار والمعتقدات السائدة بل عليه أن يعبر عن الذوق المشترك ⁽¹⁵⁾ أي عن "الأنا العميق" لأن بداخله تقبع الميولات والأهواء والرغبات والمشاعر والأحاسيس السامية التي تكشف عن **الإنساني** وتعطي له صورته الحقيقية. فمشاعر الفرد النابعة من "الأنا العميق" تجد دائماً عزائها عند الآخرين لأن هذه المشاعر،

¹⁵ Ibid. P. 128.

وعلى الرغم من أنها فردية، إلا أنها تحمل بعدا عالميا وهذا بالتحديد ما يجعلها تلقى قبولا من طرف الآخرين.

إن الفن يعبر عن ثراء المشاعر والأحاسيس والسيكولوجيا البشرية ودونه يصبح الفرد والمجتمع أبكما فهو وسيلة هامة من وسائل التعبير عن المشاعر الفردية والاجتماعية وفي هذا الصدد يعتبر الفن هاما بالنسبة للمجتمع بقدر ما هو هام بالنسبة لكل إنسان لتنمية المشاعر والأحاسيس.⁽¹⁶⁾

والفنان إذا أبدى معارضة للفكر السائد في عصره لحساب أفكار أخرى فهذا لا يعني أنه ضد الإنسانية، كونه ييدي تعارضا تجاه أقرانه، وإنما لأنه يريد تحرير التمثهات المختلفة للإنساني وضمان ديمومه⁽¹⁷⁾. والفن بذلك يعمل على تجديد المجتمع وانتشاله من تكدساته جراء انغلاقه على الذات ومنه فإن الفن يجعل الحياة في ديناميكية وفي تفاعل مستمرين.⁽¹⁸⁾ ويبدو أن تاريخ الفن نفسه يكشف على تقدم المعرفة البشرية للعالم وعلى تطور السيكلوجيا الاجتماعية وبروز المشاعر والمصالح والطبائع والتصورات والأنماط التعبيرية الجديدة. وهذا ناتج عن الظروف الجديدة لحياة البشر وعلاقاتهم.⁽¹⁹⁾

وفي الحقيقة الأمر الأفراد هم الذين يتمتعون بالحياة والديناميكية إلا أن العوائق التي يفرضها المجتمع أو العائلة أو الدين أو أشياء أخرى من هذا القبيل تقف

¹⁶ليكال بولداسيف، المرجع السابق، ص. 52.

¹⁷Ibid. P. 133.

¹⁸Ibid. P. 128.

¹⁹ليكال بولداسيف، المرجع السابق، ص. 118.

دون أن يعبر الأفراد عن أفكارهم وآمالهم ومشاعرهم. وأحيانا ما ينفلت بعض الأفراد، على الأقل الفنانين، من هذه الرقابة ومن هذه القيود ليعبروا عن الروح الإنسانية العميقة الكائنة بداخلهم. ولما يتخلص الإنسان من هذه الصدفه التي عملت ثقافات والمجتمعات على تكوينها يتجلى على طبيعته النقية ويتعامل مع الآخرين بهذه الشخصية الأصيلة وليس بالشخصية المكتسبة. لكن وللأسف فإنه ليس متاحا لكل البشر التحرر من هذه الشخصية المكتسبة وإبراز الشخصية الحقيقية⁽²⁰⁾.

المبدعون والفنانون غالبا ما يعيشون في صدمات عنيفة مع الأوضاع الراهنة لمجتمعاتهم، هي دائما أوضاع تبدو لهم على أنها بحاجة إلى تغيير لأن المجمع مهما كان فهو بحاجة إلى التجديد. هم دائما يسعون إلى التمرد على هذه النمطية التي يفرضها المجتمع. والفنانون والمبدعون الحقيقيون هم أولئك الذين نجدهم منطقيين مع ذواتهم، أوفياء لتصوراتهم ويعبرون عن حقائق إنسانية يحس ويعترف بها كل إنسان. والفنانون العباقرة لا ينتمون فقط إلى هذا الزمان والمكان الذي ولدوا ووجدوا فيه، فموطنهم ليس حتمي أن يكون ذلك الذي ترعرعوا فيه وإنما يمكن أن يكون ذلك الذي يطمحون العيش فيه. وبعيدا عن الأطر التي تفرضها الانتماءات المختلفة يعبر الفنانون العباقرة، أصحاب الحس الإنساني، عن بنية مشتركة، عن عمق مشترك. فالفنانون كما يقول النبهاني: « يلتقون في القمم وفي الأعماق لأن الفنان يرى الأشياء من

²⁰ Ibid. P. 38.

منظور الإنسانية. وكونه يعبر عما يخالج البشر، عن وعي أو دون وعي، فهو بذلك يدغدغ كل القلوب ». (21)

الفنان الحقيقي يستطيع أن يتعالى عن الوسط الذي يعيش فيه وعن الثقافة التي نشأ فيها ليعبر عن الثقافة العالمية وهي الثقافة التي ينتمي إليها الإنساني. ويدعو أن كريع النبهاني يميز بين الثقافة الخاصة والثقافة العالمية بين culture و Culture ويقصد بالثقافة الخاصة تلك الثقافة المنغلقة المحلية المتعلقة بمجتمع أو ببعض المجتمعات أما الثقافة العالمية، والتي يكتبها بحرف التاج "C"، ويقصد بها الثقافة التي يشترك فيها جميع البشر، هي الثقافة التي يستطيع أن يلج إليها الجمهور العريض (الإنسانية). ولأن روح الإنسانية ثرية فهي بحاجة إلى هؤلاء الفنانين العباقرة لتجديد الإنسانية ومسايرة تطورها. والنبهاني يؤمن أن الفن يعبر ويعمل على إثراء هذه الثقافة العالمية التي ينتمي إليها الإنساني. (22)

وحتى يكون بمقدور الفن تأدية هذا الدور يجب أن تكون هناك حرية للتعبير والتي تعد مسألة مهمة وضرورية وأساسية للإنسان عموما وللفنان خصوصا. ولما كانت الوسيلة التي يستخدمها الإنسان للتعبير عن ذاته وما يخالجه من أحاسيس ومشاعر وآراء وآلام وأفكار ومعتقدات هي الفن. فضمان حرية التعبير تتجلى إلى أي مدى تعد مسألة ضرورية وأساسية. (23)

²¹Ibidem.

²²Ibid. P. 39.

²³JamouliOuzidane, *uneverselité esthétique de Nabhani Koribaa*, www.jamouli.com.

لأنتحرير الفن هو تحرير للإنسان نفسه وإذا كان الفن مقيدا كان الإنسان بدوره مقيدا وكلما رفعنا القيود عنه كلما كلما تحرر الإنسان وزاد وعيه. وختاما يمكن القول أن الكريع النبهاى يسعى إلى بعث واهياء الإنسانى ومنه الإنسانى عن طريق الفن. وبذلك فإن الفنان دوره هو ابرازالتمظهرات المختلفة للإنسانى عند كل الشعوب وعند كل الثقافات. ويلعب الفن بذلك دور مخلص ومنقذ الإنسانى من النمطية فى الحياة ومن التعصب فى الأفكار والاعتقاد ومنالجمود فى الفكر وهذه الأشياء تعمل على قتل كل ما ينبض فى الإنسان.